الحفر على الحجر والجص في فجر الإسلام والعصر الأموي

إن التحف الحجرية والجصية المتخلفة في المباني في صدر الإسلام قليلة جداً ونادرة المعالم الزخرفية وذلك لتقادم الزمن عليها والتجديدات التي مرت بها مما أدى إلى اندثار بعضها وتغيير المعالم الأصلية للبعض الآخر علاوة على انشغال الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده بالجهاد وميلهم إلى التواضع بالحياة الذي أدى إلى عدم الاهتمام بالنواحي الجمالية - فالمساجد الأولى كانت بسيطة خالية من المعالم الفنية كمسجد المدينة وحتى بعض الأعملة الحجرية التي وجدت إلى جانب أعمدة جريد النخل في جامع البصرة (١٤) هـ / ٦٣٥ م) (١)، وجامع الكوفة (١٧) هـ / ١٣٨ م) (٢) في العراق، وجامع عمرو بن العاص في مصر (٢٠) هـ / ٦٤١ م كانت قد جلبت من بعض المباني القديمة (٣).

وقد أم المؤرخون إلى أن الخليفة عثمان بن عفان (رض) جعل جدران واعمدة المسجد النبوي من الحجارة المنقوشة سنة (٢٩) هـ / ٦٤٩م) (١) إلا أنهم لم يذكروا طبيعة تلك النقوش، كما اتضح أن بعض الأعمدة المكتشفة من المسجد الجامع في أواسط سنة ٨٤) هـ / ٧٠٣م) كانت عليها معالم الزخرفة قديمة (*).

وفي العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) حدث نشاط معماري تحمل في المساجد الكبيرة وقصور الخلفاء والحكام مما أدى إلى ظهور الأسلوب الأموي (١) وهو أول أسلوب فني واضح المعالم اختص به العرب المسلمون.

وبعد تزيين جدران العمائر بالزخارف الجصية من أهم المميزات المعمارية المستجدة في العصر الأموي ولا سيما في سوريا (٣) فقد استخدمت الزخارف الجصية النافرة على نطاق واسع في زخرفة القصور.

وتعد زخارف قصر (خربة المفجر من أهم تلك النماذج الجصية وذلك لاحتوائها على عناصر بشرية وحيوانية إلى جانب الزخارف النباتية (٣) والهندسية المتنوعة التي استخدمت بتحلية الوحدات المعمارية ولا سيما النوافذ المخرمة كالوريدات وأوراق الأكانثاس والأشكال الدائرية والنجمية والخطوط المنكسرة والمضفورة (٤)، كما تمثلت التزيينات الجصية في العمائر الدينية كما هو الحال في الزخارف الداخلية لبعض نوافذ مسجد قبة الصخرة (٠).

وظاهرة تزيين جدران العمائر بالزخارف الجصية كانت معروفة في بلاد فارس والعراق وقد أدخلها العرب في عمائرهم عندما حرروا تلك البلاد عند ظهور الإسلام .

وتعد والهة قصر المشتى المنسوب إلى الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤ م) من أهم أمثلة التحف الحجرية المحفورة في العصر الأموي حيث تتكون من واجهة أفقية ارتفاعها حوالي سنة أمتار مؤطرة بإفريز ضيق سفلي بعد بمثابة قاعدة لها وإفريز علوي آخر. وهناك إفريز منكسر قسم الواجهة إلى أربعين مثلثاً بوضعيات معتدلة ومقلوبة بصورة متناوبة وقد زيت الأفاريز الأفقية والمنكسرة وأغلب المثلثات بزخارف

متنوعة من العناصر النباتية والكائنات الحية من بشرية وحيوانية وبواسطة الحفر الفاتر والملاحظة الهامة بهذه الواجهة هي زخرفة جميع المثلثات المعتدلة بالزخارف الدقيقة ولا سيما النباتية منها وتمركز وردة كبيرة سداسية الفصوص في وسطها تتخللها أوراق الأكانتاس، بينما المثلثات المقلوبة لم تكتمل زخارفها إن لم تكن معلومة في أغلبها باستثناء تمركز منطقة مضلعة مزخرفة في كل مثلث بديلا عن الوردة المخصصة التي تشغل المثلثات المعتدلة.

وربما يعزى هذا الاختلاف في زخرفة المثلثات إلى اعتماد الفنان مبدأ التنوع الزخرفي وإمكانية التمييز فيما بينها، كما تتميز المثلثات المعتدلة في جزء الواجهة الكائن على يسار المدخل بوجود رسوم كائنات حية من طيور وحيوانات خرافية وأشكال أدمية وسط الزخارف النباتية التي طغت عليها المراوح النخيلية المجنحة وسيقان العنب وعناقيد العنب وأوراقه القريبة من الطبيعة بينهما المثلثات المعتدلة الموجودة في الجزء الكائن على يمين المدخل فتميز زخارفها بانعدام الكائنات الحية وتحوير الزخارف النباتية وتنفيذها بطريقة مجردة (٢). ولما كان هذا الجزء من الواجهة يمثل بنفس الوقت أحد جدران جامع القصر (٣). فمن المرجح أن انعدام أشكال الكائنات الحية فيه يرجع إلى مبدأ كراهية تصوير الكائنات الحية لدى المسلمين ولا سيما في العمائر الدينية (١) كما

وفي قبة الصخرة لوحان من الرخام يزينان الوجهين الخارجيين في إحدى الدعامات أو الأركان الكائنة في المشمس الأوسط والمنسوبين إلى عصر تشييد القبة في زمن عبد الملك بن مروان (٧٢) هـ / ٦٩١م) وقد تمثلت في هذين اللوحين زخارف نباتية في رسوم الشجر بعضها ذات مناطق بيضوية كونتها حركات الأعصان الحلزونية

توجد زخارف رخامية أخرى بقبة الصخرة موجودة في الوجه الداخلي للحائط الخارجي الكبير تمثل الطراز الأموي وتبدو بلون ذهبي على أرضية سوداء نتيجة اختلاف ألوان الرخام وأبرز عناصرها رسوم شجرة الحياة داخل مناطق هندسية أو بين أقواس تحملها أعمدة متصلة. وفي الجزء السفي من أسطوانة القبة الفريز قوامه فروع من نبات الأكانثاس وفي متحف دمشق لوح مستطيل من الرخام كان في الجامع الأموي مزخرف بزخارف نباتية قوامها فروع ذات حركات حلزونية على هيئة الدوائر تتخللها أوراق العنب وعناقيده، وفي وسط اللوح منطقة معينية تتوسطها وريدة ويفصل العناصر الزخرفية عن بعضها إفريز رشيق من عناصر حبات المسبحة وتشابه بعض زخارف هذا الفوح زخارف واجهة قصر المشتى . ومن الزخارف المبتكرة التي تمثلت في الطراز الأموي زخارف كتابية منقوشة على تاج عمود محفوظ بمتحف عمان بالأردن وجد في بركة قصر (الموقع) يرد بنصه اسم (عبدالله يزيد) أمير المؤمنين